الترامادول سحر واهم .. وخطر يقاوم

* سيدة ريفية بسيطة فى الخمسين من عمرها وأم لستة أبناء اعتنت بهم وربتهم بطريقة جيدة وكانت وفية لزوجها طوال عمرها , أصابها ألم فى ظهرها , ذهبت لأطباء كثر ولم تشعر بالراحة , حتى ذهبت للطبيب ع . س فوصف لها حبوبا شعرت بالراحة من أول حبة واختفى الألم تماما ودعت كثيرا لهذا الطبيب الماهر الحكيم الذى عرف مالا يعرفه بقية الأطباء ...

د. محمد المهدى
رئيس قسم الطب النفسى
جامعة الأزهر - فرع دمياط

ولكن ماهى إلا عدة ساعات حتى عاد الألم أشد مما كان فأخذت الحبة الثانية والثالثة قبل موعدها فاستراحت من الألم , ومن يومها لم يعد لديها شىء تنشغل به إلا البحث عن هذه الحبوب الساحرة التى تخفف آلامها بل وتجعلها فى حالة انبساط وبهجه وتقوم بأعمال البيت بهمة ونشاط بالغين , وهى تدور على الصيدليات بنفسها ترجوهم وتحتال عليهم وتتوسل إليهم لإعطائها تلك الحبة السحرية بأى ثمن , ولم تنتبه للسمعة التى اكتسبتها فى القرية أنها مدمنة ترامادول ، وباعت كل مالديها من قطع ذهبية للحصول على ماتريده .

■ مجموعة من "الصنايعية " فى مدينة دمياط يطلب منهم صاحب الورشة إنهاء "مقطوعية" من الأثاث لتوريدها إلى إحدى الشركات فى موعدها فلا يستطيعون ذلك , فيوزع عليهم صاحب الورشة حبوبا حمراء فيدب فيهم النشاط ويستطيعون السهر لفترات طويلة , ومن يومها لا يستطيعون أداء عملهم إلا بعد الحصول على الحبة الحمراء أو البيضاء الساحرة . بعد ذلك كانوا ينفقون كل دخلهم البسيط بل ويقترضون ويحتالون بأى طريقة للحصول على المال الذى يمكنهم من تعاطى الترامادول .

■ سائق شاحنة ينقل خضراوات وفواكه من الصعيد إلى القاهرة ولا يستطيع التوقف فى الطريق للراحة وأخذ قسط من النوم , إذ يخشى أن يطلع عليه بعض البلطجية فيأخذون منه الشاحنة بما فيها , كما أن حمولة الخضراوات والفواكه لابد أن تصل فى موعد محدد حتى لاتتعفن , لذلك نصحه زميله بالحبة الساحرة التى جعلته يقود الشاحنة لساعات طويلة دون أن يتعب أو ينام , وزاد من الجرعة مع الوقت حين وجدها تعطيه أيضا قدرة جنسية فائقة وتجعل مزاجه "فى السحاب" كما يقول , ولكن سعادته لم تدم ..حيث أصيب بنوبات فقدان للوعى مع تشنجات تداهمه فى أى وقت .. حتى أثناء قيادته للشاحنة وقد أدى هذا لتكرار حوادثه على الطريق ، فاستغنى عنه صاحب الشاحنة .

عقار ساحر بمعنى الكلمة يعطى الإنسان مايريده وما يتمناه لذلك سقط الملايين فى عشقه ولم يفكروا فيما وراء سحره , لو سألت أحدهم كم يتعاطى سيقول لك : ربع حبة أو نصف حبة ،ولكنه فى الحقيقة يتعاطى شريطا كاملا أو نصف شريط ،وبعضهم يتعاطى شريطين فى اليوم الواحد , إنه الإنكار الذى ينتاب المدمن حين يقع فى شباك حب إدمانه فيخفى حقيقته عن الناس (العزال) ليواصل رحلة غرامه بعيدا عن العيون المتلصصة والأسئلة الفضولية السخيفة.

بداية نقول إن الترامادول عقار يستخدم فى المجال الطبى كمسكن قوى للألم الشديد بعد العمليات أو الكسور وفى مرضى السرطان , حين يعطى بتوجيهات طبيب بجرعة محددة ولمدة محددة لعلاج هذه الأمراض , وهو عقار مرخص باستعماله من قبل الجهات الصحية ولكن يُصرف (أو يجب أن يصرف) بوصفة طبية خاصة ،لأنه يخضع لجدول العقاقير المخدرة , لذلك نحن لا نقدح فى العقار نفسه ولكن نتحدث عن استخدامه الترويحى والإدمانى خارج النطاق الطبى .. وقد أنتجته شركة دواء ألمانية فى عام ١٩٧٧ ليستخدم فى غرب ألمانيا ،ثم بعد ذلك بعشرين سنة انتشر استخدامه فى بريطانيا والولايات المتحدة واستراليا ،ثم انتشر استخدامه بعد ذلك على مستوى العالم . وقد انتهت فترة احتكار الشركة الألمانية المنتجة للعقار ، ولذلك حدث انفجار هائل فى إنتاج العقار بواسطة شركات أدوية أخرى على مستوى العالم أنتجت العقار تحت أسماء مختلفة ومتعددة وصلت إلى ١٢٠ اسما أشهرها الترامادول والتامول والترامال والترامودا والترامید والترامازاك والتراما والترامابول والتاندول والتامول والأمادول والتراماكس والكونترامال والألترادول والتراموندين وترامادول X ٢٢٥ وتامول X بيضاء وتى دول ٢٢٥ وغيرها . وهو ينتمى إلى مجموعة الأفيونات المصنعة ،ولذلك يعتبر من مشتقات المورفين ومن عائلة الهيروين , أى أنه من المخدرات قوية التأثير. والعقار يصنف ضمن الأدوية التى تصرف تحت السيطرة حتى لا يتم إساءة استخدامه أو تعاطيه بشكل ترويحى أو إدمانى , والقوانين تنظم استخدامه فى أغلب دول العالم , ولكن للأسف يتم توزيع (وربما تصنيع) كميات هائلة من العقار خارج الإطار الصيدلانى المقنن , ولهذا تم ضبط ٢٥٠ مليون قرص ترامادول مهرب إلى مصر عام ٢٠١٢م ،وتم ضبط ١٥٨ مليون قرص مهرب أيضا لمصر عام ٢٠١٤ م , ومن المعروف أن ما يتم ضبطه هو عُشر ما يتم إدخاله إلى البلاد , ولهذا نرى انتشارا وبائيا لتعاطى الترامادول فى مصر وبقية

الدول العربية . وفى المملكة العربية السعودية تم تصنيف الترامادول على أنه مادة مخدرة وليس دواءً .. ومن ثم يتم تطبيق عقوبة الإعدام على من يقومون بتهريبه إلى الأراضى السعودية , كما يتم تطبيق عقوبة السجن لمدة قد تصل إلى عشرين عاما على من يثبت عليه إدمان الترامادول. ولهذا كانت الدول تنبه على منتسبيها ألا يحملوا معهم الترامادول أثناء رحلات الحج والعمرة حتى لا يتعرضوا لتلك العقوبات , إذ ثبت - بكل أسف - أن أعدادا غير قليلة ممن يتوجهون للحج والعمرة كانوا يأخذون معهم جرعات من الترامادول نظرا لتعوّدهم على تعاطيه .

والترامادول المصرى بدأ إنتاجه منذ حوالى ١٥ عاما وكانت تنتجه إحدى الشركات المصرية بتركيز ٥٠ ملجم ولم يكن موضوعا على جداول المخدرات مما ساعد على انتشاره, وعلى الرغم من وضعه على جداول المخدرات فى السنوات الثلاث الأخيرة إلا أن صرفه خارج الإطار القانونى مازال سهلا وممكنا ، وذلك لضعف السيطرة على الصيدليات وضعف العقوبات على المخالفين. ومما زاد الأمر خطورة استجلاب كميات هائلة من الترامادول من الصين والهند بأسعار رخيصة جدا حيث إن هذا العقار غير مصنف لديهم ضمن قائمة العقاقير المخدرة ، ولهذا ليس لديهم مشكلة فى تصنيعه وتوزيعه. والخطورة فى الترامادول الهندى والصينى أنه مخلوط بمواد أخرى ومنها السيلدينافيل (الفياجرا) , والباراسيتامول (مسكن) والكافيين (منشط) , والديازيبام (مهدئ) والميترونيدازول (علاج للمعدة) , مما يعطى تأثيرات متعددة ومرغوبة من المتعاطين ولكنها تحمل مخاطر لا يمكن حسابها حسب جرعة الترامادول المنفرد , كما أن المنتج الهندى والصينى له تركيزات عالية تصل إلى ٢٢٥ملجم وهى جرعة زائدة على الاحتياجات العلاجية الطبية التى لاتتجاوز غالبا ١٠٠ ملجم يوميا .

وتصل نسبة إدمان الترامادول إلى ٤٠٪ من إجمالى عدد المدمنين وهو يأتى فى المرتبة الثانية بعد الحشيش . وأكثر الفئات استخداما له هم السائقون والحرفيون والتجار والمراهقون , وقد امتد استخدامه إلى لطبقة الوسطى من المتعلمين وأصبح يستخدم كهدايا ورشوة لقضاء المصالح. ولم يتوقف استخدامه عند هذا الحد بل امتد إلى ربات البيوت (لعلاج آلام الظهر أو آلام الدورة الشهرية) وإلى المراهقين والشباب .

فماهو سر هذا العقار ؟ وماهو تكوينه الكيميائى ببساطة وكيف يعمل ؟

إنه ينتمى إلى فصيلة الأفيونات المصنعة (أى أنه ليس مسكنا عاديا كما يعتقد المدمنون وكثير من الناس) . وهو يؤدى هذا المفعول من خلال آليتين : الأولى أنه يرتبط بمستقبلات الأفيون والثانية أنه يثبط إعادة أخذ السيروتونين والنورأدرينالين . والآلية الأولى تعطيه طعم وتأثير المواد الأفيونية مثل الأفيون والهيروين فيزول أى شعور بالألم ويصبح فى حالة نشوة واسترخاء جميل وحالة من اليقظة , والآلية الثانية تعطيه تأثير مضادات الاكتئاب لذلك يشعر متعاطيه بزوال همومه وبسعادة وبهجة ونشاط .

وكثير من متعاطى الترامادول بشكل ترويحى يستخدمونه لتحسين أدائهم الجنسى حيث يؤخر القذف ويطيل من مدة اللقاء الجنسى ٢-٦ أضعاف الوقت المعتاد ،وهو يؤدى هذه الوظيفة فى جرعات صغيرة تتراوح بين ٢٥-٥٠ ملجم قبل الجماع بـ ٦-٨ ساعات . وهم يخلطونه بالفياجرا التى تؤدى إلى تقوية الانتصاب وبذلك تكتمل الدورة الجنسية بالشكل الذى يريدونه , وأحيانا يضيفون الحشيش إلى هذه التركيبة بحيث يؤثر على إدراك الزمان فيطيله وإدراك الألوان والأصوات فيجعلها أكثر تأثيرا وبهجة , وهذه الخلطة يسمونها "التوجيبة" ويعطونها أحيانا للعريس فى ليلة الدخلة , أو لبعضهم البعض يوم الخميس (ليلة الجمعة) أو فى الأعياد.

هذا هو الوجه الساحر للعقار فما هو الوجه الآخر الذى ربما لا يعرفه مدمنوه ؟

إن من أعراضه الجانبية حدوث نوبات تشنجية صرعية , وحدوث زملة زيادة السيروتونين , ونقص حالة اليقظة , ثم الأخطر من ذلك كله وهو حالة الإدمان عليه . وهناك أعراض جانبية أخرى مثل الإمساك المزمن , والهرش والغثيان والقئ , والدوخه , وجفاف الفم وصعوبة الهضم , وآلام البطن , وفقد الشهية , والدوار والصداع . والدراسات الأحدث تؤكد تأثيره السلبى على القدرات المعرفية وعلى الشخصية مما يحدث تدهورا فى الإدراك والانتباه والتفكير والذاكرة وطريقة التعامل مع الناس والاستجابة للأحداث اليومية .

والجرعة الزائدة قد تؤدى إلى هبوط حاد فى التنفس أو حدوث تشنجات صرعية خطرة , وقد تحدث الوفاة نتيجة لذلك .

وأحيانا يضاف على الترامادول مادة الباراسيتامول ليزداد تأثيره المسكن للألم , وهو يثبط الألم فى خلال ساعة زمن ولكن تأثيره المسكن يستمر لحوالى ٢-٤ ساعات ولهذا يحتاج متعاطيه إلى تكرار الجرعة .وهو موجود فى صورة حبوب أو كبسولات أو أمبولات .

وحين تتعاطاه المرأة الحامل فإن الطفل حين يولد يصاب بأعراض انسحاب الترامادول ويصبح أكثر قابلية للإدمان فى حياته , كما أن تعاطيه أثناء الرضاعة فتصل كمية منه حوالى ٣٪ إلى الرضيع فيصبح مدمنا , ولذلك لا ينصح باستعماله كمسكن أثناء الولادة لأن الأم غالبا ماترضع طفلها بينما مادة الترامادول ماتزال فى دمها .

ولا ينصح باستخدامه فى الأشخاص أقل من ١٧ سنة حيث أثبتت استقصاءات هيئة الدواء والغذاء الأمريكية (التى تمنح تصريحا للأدوية فى العالم) أن العقار فى هذه السن يسبب بطئا وصعوبة فى التنفس. أما كبار السن فلا ينصح أيضا باستخدامه معهم حيث قد يؤدى إلى هبوط فى التنفس , وسقوط , وتدهور فى القدرات المعرفية وحالات خمول .

وبما أن الدواء يتم التخلص منه عن طريق الكبد والكليتين فإنه لا يُنصح باستخدامه فى وجود خلل فى هذه الأعضاء , والمشكلة أن كثيرا من المدمنين لديهم مشاكل فى الكبد أو الكلى ومع ذلك يتعاطونه بكميات كبيرة تعجل بالفشل الكبدى أو الكلوى .

وتعاطى الترامادول لفترات أطول وبجرعات أكثر مما يقررها الطبيب تسبب إدمانا (اعتمادية) يتمثل فى الرغبة المستمرة فى زيادة الجرعة للحصول على نفس التأثير , وحدوث أعراض انسحابية عند التوقف عن تعاطيه تتمثل فى الشعور بخدلان وتنميل وشكشكة وأحاسيس أخرى فى الجسم مع طنين فى الأذن , وهلاوس , وشكوك بارانوية (اضطهادية) مع قلق شديد وأحيانا نوبات هلع وتشوش فى الوعى . وأعراض الانسحاب تمثل تلك الخاصة بالأفيونات مضافا إليها أعراض انسحاب مضادات استرداد السيروتونين والنورأدرينالين ولذلك يمتد إلى أسبوع .

والاستعمال الترويحى للترامادول وبخاصة فى الجرعات المرتفعة قد يؤدى إلى نوبات صرعية (فقدان مفاجئ للوعى مع تشنجات) متكررة أو ممتدة وقد تشكل خطورة على حياة الشخص المتعاطى .

والسؤال الآن : إذا كان الترامادول يؤدى وظائف إيجابية (تحسين الحالة المزاجية وتخفيف الألم وزيادة النشاط وإطالة فترة اللقاء الجنسى) ،ولكن قابليته للإدمان عالية كما أن أعراضه الجانبية مع الاستعمال الترويحى والإدمانى تكون شديدة الخطورة , فهل هناك بدائل طبية آمنة لاستعماله ؟

بالتأكيد هناك بدائل طبية آمنة لاستعمال الترامادول ، فمثلا وُجد أن عقار الباروكستين أو السيرترالين - وهما مضادا اكتئاب من مجموعة مانعات استرداد السيروتونين - يؤدى إلى إطالة فترة اللقاء الجنسى أكثر من الترامادول ولكن بدون أعراضه الجانبية الخطيرة , كما أن مضادات الاكتئاب من مجموعة مانعات استرداد السيروتونين والنورأدرينالين (مثل الفينلافاكسين , والديسفينلافاكسين , والدولوكستين) تؤدى نفس الوظيفة التى يؤديها الترامادول على الحالة النفسية (تخفيف الاكتئاب والقلق والألم) دون أن يكون لها الطبيعة الإدمانية الموجودة فى الترامادول ،وذلك لخلوها من التاثير على مستقبلات الأفيون التى تعطى الترامادول خصائصه الإدمانية .وهذه العقاقير الطبية تستخدم فى علاج إدمان الترامادول لتعطى المريض بديلا آمنا للترامادول .

وعلاج إدمان الترامادول يتبع نفس طريقة علاج الإدمانات الأخرى من حيث المرور بمرحلة علاج أعراض الانسحاب ويفضل أن تكون فى مؤسسة طبية وتحت إشراف طبى متخصص ، وهى تستغرق من عشرة أيام إلى أسبوعين , يليها فترة علاج تأهيلى تستمر من أربعة لستة شهور , ثم مرحلة الرعاية اللاحقة بعد الخروج بهدف منع الإنتكاسة .

والمشكلة الخطيرة فى الترامادول هى استهانة الناس بخطورة تعاطيه واعتبار أنه مجرد مسكن مثل الأسبرين أو البروفين أو غيرها من المسكنات , كما أنه متوفر فى كل مكان وبأسعار متاحة للكثيرين , وطريقة صرفه فى الصيدليات لا تلتزم بكونه أحد أدوية جداول المخدرات , كما أنه متداول فى السوق السوداء تصنيعا وتوزيعا بكميات هائلة مما يجعله وباءً إدمانيا خطيرا يستدعى دق نواقيس الخطر لمن يهمهم الأمر (فعلا) .